

ميزانيتنا القومية

تدعو إلى الأمل والتفاؤل

بقلم الأستاذ سيد قطب

نشرت صحيفة البلاغ في معهد الأخير ترجمة سلسلة لكتاب فرنسي عنوانه "حقيقة الشكبة الفرنسية". وقد لفت نظري فيه، وهو يصف الحالة التي كانت عليها فرنسا قبل الهزيمة، ويعلل أسباب الكارثة التي لم يكن أشد الناس تشاؤماً يتوقعها هذه الدولة... لفت نظري أن حالة نفسية خاصة كانت تستولى على بيتان وفيجان وبدوان وغيرهم من رجال الدولة تتحصص في اعتقادهم أن كل شيء في فرنسا قد فسد، وأن كيانها الخلق والديني قد انحل، وأن الكارثة وحدها هي التي تنهصها من كبوتها وتطهر فؤادها من الأدران، حتى لقد بات هذا الفريق وهو يمتحن الهزيمة الساحقة القاصمة، ويفرق من النصر خشية أن تظل فرنسا على ما هي فيه من الاستهتار والعكوف على التلذذات.

وبينا كان "بول رينو" رئيس الوزارة ومسيو "ماندل" وزير الداخلية يحاولان استمصاص العزائم ويعقدان مع بريطانيا اتفاقية بعدم عقد صلح منفرد... بينما كان "بول رينو" يلقى خطبته المفزعة ويصرخ فيها: "إنني أؤمن بالمعجزات لأنني أؤمن بفرنسا" وبينما كان "ماندل" يؤكد في أحاديثه "أن فرنسا لن تخون عهدها وإن تنكبت باتفاقيتها"... كان "فيجان" و"بيتان" ومن معهما يشون روح الهزيمة، ويشعرون الشعور بالضعف، ويفرضون الكارثة على أممهم فرصاً تحت تأثير تلك الحالة النفسية التي أشرت إليها آنفاً.

وقد أخذت خطب "بيتان" الشيخ منذ ذلك الحين تنضح بهذه الروح، لقد اعتقد أن الله كتب على فرنسا الهزيمة في هذه المرة لتذوق العذاب وتتبرع انقبص فتطهر روحها ويستيقظ ضميرها، وكان قد تشاءم كل التشاؤم مما هي فيه ويأس من صلاحها عن غير هذا الطريق الأليم؛ فلما وقعت الكارثة بالتفعل بعد أن عمل لها هو والقائد العام للبيش الفرنسي أخذ يلقى تصريحاته وخطبه ويضمنها مواعظة وحكمه، وانقلب واعضاً في كنيسة لا رئيساً للدولة. ويخيل أن بل رينو لا أكاد أعتقد أنه استراح وانضم بعد هذه الهزيمة الشنعاء مخلصاً في راحته وأطمئنه، لعقيدته ولشعبه!

كم فينا اليوم من أمثال بيتان وفيجان ممن يعتقدون كعقيدتهما ويتشاءمون كتشاؤمهما ويتنون لمصر كارثة قاصمة تطهرها من أدرانها ومغاسدها، وتردها متدنية منطسة، وتعيد عليها ماضيها من التقوى والصلاح؟

فينا كثيرون جدا، وذلك من أخطر الأمور .

وبعض هؤلاء الذين يجهرون بالتشاؤم من حاضر مصر ومستقبلها، ويثسبون من صلاح حالها إلا عن طريق العذاس والألام غير مخلصين فيما يجهرون ، ولم تدفعهم إليه فكرة عليا ولا رغبة في خير البلد ولكنها تقمة على الأمة أو الدولة لأنها لم تحقق لهم مطامع وغايات فردية يرونها كل شيء في عايشهم الضيق المحصور .

فلعل أحدهم أن يفاك بالسخط على الشعب والحكومة، وينثر على سمعك ألفاظ السباب للزمن والكون لأن مغنا شخصيا فاته، أو لأن مطمعا حقيرا لم يتبأ له، أو لأن درجة أو علاوة أو صفقة منعت عنه ... إلى آخر هذه التفاهات .

بل لقد سمعت ساخطا يسخط لأنه تبع سيادة في الطريق يعا كسها ، فإذا بآخر من أخوانه يعا كسه في هذه العاكسة ويفوت عليه الصيد ! . ولم يفته أن يعد هذا من انقلاب الزمان وسوء النظام، ودلائل الانحطاط في الأمة؛ وأن يتبأ لها بأويل وأشبور كي يتصلح الحال ويستقيم الحال !!!

وأما هؤلاء لا يستحقون الحديث، ولكن الشيء الخطر أن يجوارهم جماعة مخلصه من الساخطين المنتشأين على ما نرى هذه الأمة من عيوب حقيقية ونقائص واقعة ، غير أنهم متحمسون في رغبتهم الإصلاح المعجل ، شديدو الحساسية بالعيوب والنقائص . وهؤلاء تدفعهم شدة حساسيتهم وحرارة حماسهم إلى تجسيم العيوب وتضخيمها كما تدفعهم شدة الرغبة في الإصلاح السريع، إلى إنكار لإصلاحات البطيئة واليأس من جدواها فيملون صيحات الفزع والتشاؤم ويخلقون حولهم حانة نفسية كالحالة التي أودت بفرنسا .

فأنت لا تفنأ تسمع أن الكيان الخلق للأمة قد تحطم وانهار، فالشبان والفتيات والرجال والنساء يعيشون في بوهيمية لا تفتق، واستهتار لا يتورع، وقد فسدت البيوت وتقصوت أسسها وانهكت حرمتها وأحل فيها كل حرام، وها هي ذى البلاجات تعج بالفسوم الرخيصة والحفلات تنضح بالخزبي والإثم والمواخير تقذف بالرجس والفضيحة ، فلم يبق إلا أن تحمل بهذه الأمة كارثة قاصمة كي تحمي من هذا الخمار وتثوب إلى الرشد والصواب !

وأنت لا تفنأ تسمع أن المحسوبة تفسد كل أعمال الدولة وتمشي في كل مرافق الأمة . وأبناك المنتشأون فلا يكون لكأ واحدا ولا شخصية واحدة لا تناها الريبة من هذه الناحية ولا يرتفع فوق مستوى الشبهات، فلا بد إذن من كارثة قاصمة تأكل الأخضر واليابس وتحطم هذه النظم الفاسدة وترد إلى الأعمال سيرتها النظيفه !

وأنت لا تفنأ تسمع التها والتشيعات تكال كلالا للزعماء ورجال الحركة الوطنية ورجال المال والأعمال وكل شخصية بارزة أو رأس كبير ، بحيث تعتقد أن هؤلاء جميعا تجار مرتزقون مرتشون موبوعو الخلق والضمير ، فاسدو النية والسريرة ، مشوهو العرض والشرف... فلا بد إذن من كارثة قاصمة تعصف بهؤلاء جميعا، وتنبت للامة غيرهم نباتا طيبا !

فإذا فرغت من هذا كله فأنت أمام اتهام لكل شيء مصرى... للبضاعة المصرية وللدواء المصرى وليبوت العمل المصرية ، والاستعداد العقلى والعلمى كذلك . فلا ثقة ولا أمل ولا إيتار لهذه "المصريات" كلها على نظائرها الأجنبية... ثم — مع ذلك — شكوى من هذه الحالة نفسها ونعى على المصريين أنهم لا يثقون بالمصريين ؟

°

كثير مما يقال صحيح ولا ريب ، ولكن كان لا بد أن يكون ! فقد توالت على مصر أحداث وعهود لو توالت على غيرها لذهبت من الوجود ، ولكن مصر صمدت لها ، واحتفظت مع ذلك بكثير من فضائلها ، وهى فضائل أساسية ثابتة عميقة توحى بالأمل وتشعر بالرجاء .

وكثير ممن يسخطون ويتبرمون مخلصون — كما قلت — فى سخطهم وتبرمهم ، وللسخط قيمته فى الإصلاح بل هو طريق الإصلاح ، ولكنهم مبالغون فى هذا السخط ، متحمسون فى تصوير النقص ، مخطئون فى الشاؤم واليأس .

ومن واجب المصلح أن يسخط على المفسد ويشور على النقائص . ولكن من واجبه كذلك أن تمتلئ نفسه بالرجاء فى الإصلاح ، ويفيض صدره بالثقة فى النهوض ، فيأهب الظهور بسياط السخط ولكن يلوح للأنظار بحلوى الأمل . خيفة أن تشيع فى النفوس روح اليأس فتفهم — كما فهم بعض زعماء فرنسا — أن الكارثة وحدها هى سبيل الخلاص !

°

ومن طبيعة النفس الإنسانية أن تمنح إلى الماضى وأن تمنى معايبه وتتصوره فى صورة جميلة ، وأن تتطلع إلى المستقبل وترجو فيه الآمال البعيدة . أما الحاضر المائل بكل ما فيه من خير وشر ، فمن عادة النفس أن تنظر إليه بعين أخرى وأن تجمع نقائصه وتنسى محاسنه ، وتنسى ما به هذه النقائص المحسمة ولا سيما من رجال الجيل الماضى وسيداته ، الذين يجدون أنفسهم فى جور غير جوارهم ، وفى عهد تفتت السلطة من أيديهم فيه لتنتقل إلى أيدي الجيل الجديد !

وكثيرا ما نسمع أن الزمن قد فسد ، وأن الأمة تتأخر ولا تتقدم ، وأنها تفقد فضائلها شيئا فشيئا ، وأن الخير والبركة يضمحلان رويدا رويدا ... إلى آخر عبارات التسخط على الحاضر والترحم على الماضى .

فهل هذا كله صحيح ؟

لا شك فى أننا فى صراعنا مع الزمن والحياة ، وفى تأثرنا بتقلبات الاجتماع والسياسة قد خسرنا فى المعركة ما لا بد من خسارته ، ولكننا كذلك كسبنا ، ومن الإنصاف ونحن

نرم صورة عامة لموقفنا أن نضع الأرباح بخوار الخسائر، وأن نقدم ميزانيتنا لأنفسنا على هذا الأساس .

ولذلك كذلك بعض الأمثال في نصف قرن من الزمان .

نبدأ بموقفنا الوطني والسياسي . وبما لا شك فيه أننا كسبنا في هذا الموقف كثيرا ، فانتقلنا من حالة ذهول وطني إلى حالة يقظة قومية مهما قيل فيها من العيوب فهي عيوب اليةظة ، وانتقلنا من وضع سياسي معين تحت الاحتلال والحماية إلى وضع سياسي آخر معترف لنا فيه بالاستقلال والسيادة ، وبمهما قيل في حقيقة هذا الاستقلال فهو استقلال ، والزمن كفيلا بثبوتته وحماية مظاهره ودخاله .

ومن الذين لأنفسنا ، بل لمن الجريحة ، أن نطلق ألسنتنا بإشاعات مشكوك فيها على الأقل ، ترزع من قيمة هذا الاستقلال في نظر الأمة وتقعدها عن الدفاع عنه ، وتشعرها أن فقدته لا بعد خسارة حقيقية ، فمثل هذه الروح تدعو إلى اليأس والاستسلام بإزاء ما يهدد كياننا من الأخطار ، فوق ما تبثه من روح التأييد العام في ظروف نحن أحوج فيها إلى الاستقرار . والذين يطلقون هذه الإشاعات ، ويصورون موقفنا السياسي العام تصويرا قاتما . يدفعون بنا إلى هذا المسير مهما افترضنا في نفوسهم من الإخلاص ، وفي عقيدتهم من النقاء فكيف تكون الحال إذا كانوا ينظرون للسألة من وجهة شخصية ، و يعملون لمغانم وأرباح عن هذا الطريق الشاذ ؟

ثم لنتناول موقفنا الاقتصادي والمالي بعد ذلك . فنحن نشكو من الفقر المدقع الذي يخيم على ربوع البلاد ، ونشكو من سوء توزيع الثروة بين الأفراد . وهذا وذلك صحيحان ولا بد من العمل السريع الجاسم لعلاجهما .

ولكن هذا ليس معناه أننا اليوم في موقف أسوأ مما كنا عليه منذ نصف قرن ، ولستنا نسير القهقري في هذا المجال ، بل نحن على الرغم من كل شيء نسير إلى الأمام ، ولكن بخطوات بطيئة يجب استحثاها والإسراع فيها مع الأمل والرجاء .

فقبل نصف قرن كان الفلاح يعاني ما يعانيه اليوم من فقر أسود كالحج ، ولكنه كان يعاني بجانبه السخرة للشروعات العامة والخاصة بالسياسة لأداء الضرائب التي لا نظام لها ولا ميعاد ، وكان العامل يجهد كل حقوقه ولا يهم أحد أن يعترف له بها .

فها نحن أولاء قد قطعنا مرحلة كبيرة بخطواتنا البطيئة ، فالضريبة منظمة وإن احتاجت إلى التطور والتعديل ، والسخرة ممنوعة ، وللعامل حقوق معترف بها وإن لم تكن كاملة ، وما هي إلا أن تثر الدعوات الحديدة عرثها في كل ذلك حتى يتبين الكسب على حقيقته ونعرف مقدار ما سرنا إلى الأمام .

فاذا نظرنا إلى الجانب الاجتماعي ، هالنا لأول مرة ما لحق كيانه من الاضطراب وقواعده من الاهتزاز في النواحي الخلقية على الخصوص. ولكن هذا الاضطراب على ما فيه من شر ، لم يكن شرا كله .

وهو على أية حال لم يكن خاصا بمصر حتى نفقد ثقتنا بها ونفرض أيدينا من إصلاحها ، فلقد أصيب الكيان الاجتماعي بهزة عنيفة في العالم كله لحقنا صداها بعدا لحرب المعظمي . ونحن نجتاز الآن فترة انتقال ولا بد فيها من تضحيات ، ولا بد أن يقع الكثيرون والكثيرات صرعى في زحمتها ، ولكنها تضحيات لن تذهب هباء .

وقد كنت معنيا على الدوام بمراقبة خطوات هذه الهزة في كياننا . وأعتقد أنها بلغت ذروتها حوالي سنة ١٩٣٣ ثم أخذت حدها في التناقص ، ونحن اليوم أقرب إلى الصحة مما كنا في ذلك العام .

فتمج الشبان وتغنثهم وبسدهم عن الاشتغال بالمسائل العامة وانطوائهم على نفوسهم الصغيرة . كل أولئك كان أوضح ما يكون في الفترة التي تلت ركود الثورة من سنة ١٩٢٧ إلى سنة ١٩٣٣ . وهي فترة قصيرة جدا كضح البصر . وقد أخذت حدة هذه الحالة تفسر كما قلت منذ استعاد الشباب بعض وثباته في مشروع القرش وعيد الاقتصاد النقوي وثورة سنة ١٩٣٥ وفيها قبس من الثورة الكبرى . ثم تلا ذلك ما نراه اليوم من اشتغال الشبان والشباب بالإصلاح الاجتماعي والمشروعات الاقتصادية ، ومن اهتمام شباب الجيل إلى كثير من رجولته في هذه الخدمات العامة .

وليست اليقظة الاجتماعية التي نحس تيارها في كل الأوساط بالمكسب اليسير الذي يجوز إغفاله في الحساب العام .

ومهما نبتس لحال إصلاح والعمل ، فإن لنا أن نستبشر بالاهتمام البأدى بشأنهما في عالم الأفكار والأعمال ، فهذا الذي كان ينتظر أن يتصدى كبار رجال المال والأعمال كدولة صدق باشا وسعادة أحمد عبود باشا للحديث عن الغلاء المصطنع وما يلقاه الفقراء من جرائه في المدينة والريف .

لقد قرأت في حاسة وصرور كلمة عبود باشا بالأهرام تلك التي يقول فيها :

”أود أن أئبه على صفحات ”الأهرام“ انغراء إلى الضائقة المرعبة — ولا أكون مسرفا إذا قلت الخطورة — في الريف وقد شاهدت مظاهرها المعززة بعيني رأسي في أيام العيد القليلة التي كان في مرجوى أن أفضيها في ”أرمنت“ للاستجمام والراحة .

”لقد كنت — ككثيرين غيري من سكان أخواضر — أغدو وروح من بقي إلى عملي غير مشاهد شيئا من آيات الضنك والفاقة المدقمة التي يعانها سواد الأمة — وكنت ربما خطرتي ، أن فيما تكتبه وتصفه صحفا بعض المبالغة . فلما صرت في الريف ونظرت بعين وسمعت بأذني ، هالني ما رأيت .

”رأيت شبانا في ريعان الشباب يسقطون مغشيا عليهم من الجوع .
ورأيت الذي يقتنى بضعة دجاجات ينتفع بايضا يحملها الى السوق ويبيعها بيع المضطر
بالوكس والبخس ليعود بدراهم قليلة يشتري بها بعض الذرة له ولعاليه .
”ورأيت طالب الذرة يحتمل بلع ثمنها المتر في التسعيرة ثم يعيه الحصول عليها بعد الذي
تكلف من العناء والتضحية ، لأن الذي عنده الذرة يأبى إلا أن يبيعها بثمن فاحش لا تقره -
ولا يمكن أن تقره - أية تسعيرة .

”والخلاصة - بلا حاجة إلى الإفاضة - أن الجوع فاش في الأقاليم وأنه يستوجب
أن تتخذ الحكومة من التدابير أحزمها وأسرعها وأولاهها بأن تجنئ الأمة ثمرته المنشودة .
”ولست ممن يجمع بهم الخيال ، ولكني ممن يستطيعون أن يروا نهاية الأمور من بدايتها .
وإني أقرر بأعلى صوتي أن حالة الأرياف تستوجب المبادرة إلى اتخاذ إجراءات بتطوى على
منتهى الحزم والإسراع العاقبة .

”إن الفلاح يعمل ويكد - إذا وجد العمل - ولا يجزى على عمله إلا اليسير الذي
لا يكفيه وذويه للحصول على الكفاف في هذه الأيام .
”ودخله كله - إذا عمل في أيام السنة كلها - لا يكفيه لطعامه ، فضلا عن غيره
في الظروف الحاضرة .

”وقد أعملت الفكر وأنصت النظر ، فلم أر حلجا يجدي في هذه الظروف المستعصية
إلا أن تتولى الحكومة أمر القوت وتستولى على مواد الضرورية وتتولى هي بواسطة ممثلها
- لا بواسطة التجار - توزيعها على الأهالي ؛ ومثلوها كثيرون في عواصم المديرات
والمراكز والقرى .

”وحتى هذا لا يكفي ، فإن كل مزبته أن تباع مواد القوت بالأسعار المقررة ولكن
الأسعار تفوق طاقة السواد الأعظم في الأرياف . ولهذا أعود فأكرر اقتراحي أن تباع
الحكومة مواد الطعام للأهالي بأقل من الأثمان المقررة في التسعيرة - أى بالأثمان التي
تدخل في طاقة الشعب .

”وقد يسأل القارئ عن الفرق من يدفعه ، وجوابي أن التضحية لازمة في مثل هذه
الأيام العصيبة ، وأن الحكومة ينبغي أن تحمل بعض الفرق إذا لم تستطع أن تحمله كله ،
وعلى الأغنياء والموسرين من أبناء مصر المستجيبين أن يتحملوا نصيبهم من الغرم في سبيل الأمة
وأمنها واستقامتها احوالها .

”وإذا كان هناك من لا يسهل عليه أن يدعى إلى التضحية في سبيل إطعام الأمة ووقايتها
غوائل الجوع ، فإني أقول له إن من حماية ماله أن يضحي بما يطعم فيه من ربح وأنه
يفتدى بالقليل الذي يعوض ، الكثير الذي لا يعوض .

”هذا اقتراحى على الحكومة والموسرين وأنا أناشدهم جميعا، بإخلاص وإلحاح، أن يتعاونوا على التخفيف عن الأمة . وأكثنى بهذا القدر من التنبيه — وقد كان حسبهم منها ما أثره جلالة الملك في رمضان من إطعام الفقراء في كل إقليم وفي العدول عن دعوة الوجهاء والأعيان والكبراء الذين لا يتقصهم الطعام“ .

ومهما قيل في بواعث مثل هذه الصيحة ، من أنها تخدير للأعصاب من رجال المال حتى تفهم الطبقات الفقيرة أنهم معنيون بشأنها فلا تمهض هى للمطالبة بحقوقها ولا تياس من إنصافها — مهما قال سينو الظن مثل هذا القول، فون لنا أن نسجل هذا الانتصار في ميدان الخدمة الاجتماعية وأن ننظر إليه بعين التفاؤل ونعده خطوة كبيرة في سبيل الإصلاح الاجتماعى المنشود .



وأما في الناحية الصحية فقد تقدمنا تقدما يذكر في جانب العلاج وإن كان يفسد علينا هذا التقدم تقصيرنا في جانب الوقاية ، وقد عمل نظام الرى الدائم عمله السيئ في نشر الأمراض المتوطنة وإضعاف تربة الأرض على السواء ، لأننا لم نحتط له بنظام الصرف المناسب وبالأعمال الصحية الواقية من العدوى للفلاحين ، ولكن ها نحن أولاء قد تنبنا أخيرا ، ولا تزال الأبحاث تحاول الاهتداء إلى أفضل طرق الوقاية للفلاح وللأرض جميعا .
وأما النهضة الأدبية والعلمية فما لا شك فيه أنها سارت بخطوات سريعة . ومهما يكن في بنائها من الخلل والنقص ، فلا سبيل للظن بأننا نتأخر ولا نتقدم في كل اتجاه . ولا حاجة هنا لضرب الأمثال .



والخلاصة أن ميزانيتنا القومية والاجتماعية والعلمية لا تدعو إلى اليأس والتشاؤم ، بل هى على الضد تدعو إلى الأمل والتفاؤل ، ومن واجبا ولا ريب أن نكشف عن مواطن النقص وأن ندعو في كل يوم إلى الكمال، وأن نتعلم السخط على الواقع وأن نتطلع إلى مستقبل جديد .
ولكن ينبغي أن يتم ذلك كله دون المساس بإيماننا الوثيق بمصر وبما فيها من عناصر الخير والقوة ، ومن بذور الحق والجمال ، ومن دنائهم الإنشاء والبناء .

فتصوير الواقع باللون القاتم وإشاعة اليأس في النفوس من كل إصلاح عمل خطر له نتائجه الوخيمة، وأمامنا مثل من هذه النتائج في فرنسا المسكينة التي ابتليت في محنتها رجال — مهما قيل في إخلاصهم — فإنهم فقدوا إيمانهم بوطنهم وضعف رجائهم فيه ، فتمنوا له الكوارث على أمل أن تصبح عاملا من عوامل البعث والإنهاض ، وكانت النهاية هى هذه المأساة المحزنة الأليمة ما